



عند دراسة تاريخ المدن يميل الباحث عادةً إلى الانطلاق مما هو مرئي: شكل الشوارع، توزيع الأسواق، علاقة السلطة بالمجال، ثم يُفترض أن هذه العناصر المادية هي التي كوَّنت المدينة قيد الدراسة، ومن ثم يرحل إلى تاريخ تكون تلك البنى المادية، لينتهي إلى السلطة التي أوجدت تلك المدينة. غير أن هذا المنهج يفترض ضمناً أن المكان موجود قبل إدراكه، وأن المعرفة تأتي لاحقاً لتصف واقعاً مادياً مكتملاً. لكن قراءة الجغرافيا الإسلامية المبكرة تضعنا أمام ترتيب معاكس تقريباً؛ إذ يبدو أن المدينة لم تُفهم بوصفها بنية مادية أولاً، بل بوصفها إمكانية معرفية مستمرة. فالمشكلة التي واجهت الإنسان لم تكن أين يبني، بل كيف يصبح العالم قابلاً لأن يُبنى فيه أصلاً، وذلك شكل علائقي مع الكون والعالم. ولهذا فإن النصوص الجغرافية لا تبدأ بتحديد الحدود أو القياسات، بل ببناء صورة تبادلية يمكن العيش داخلها؛ تذكر فيها الطرق قبل المسافات، والعلاقات قبل المواقع، والقصص قبل التضاريس. المكان لا يُعطى باعتباره إحدائيات بل باعتباره شبكة من أنماط الوجود والتأويل والتبادل والترميز.

هنا يلتقي هذا المنظور مع تحليل ابن خلدون للعمران؛ إذ لا تفهم نشأة المدن بوصفها نتيجة التخطيط أو البناء، بل نتيجة اجتماع بشري يخلق شروط الاستقرار أولاً. فالناس لا يجتمعون لأن الحيز المكاني موجود، بل تظهر المدينة لأن الاجتماع أصبح ممكناً؛ بداية من الخطاب والمعنى، وصولاً إلى ماديته، ويأتي البناء في نهاية العملية لا بدايتها. وبذلك لا يكون العمران شكلاً معمارياً، بل حالة اجتماعية تنتج المكان ذاته، بكل ما في الجذر الثلاثي "م ك ن" من تعدد في المعنى. ومن ثم يصبح الوجود -بمعناه غير المحدود- سابقاً على الإقامة في المادي؛ إذ يستطيع القارئ أن يعرف مدينة لم يزرها ويشعر بقربها أو بعدها دون أن يقيسها، وأن يقرأها ويؤولها نصّاً قبل أن تتحول إلى تفاصيل. هذه القدرة على تخيل المكان ليست أمراً ثانوياً، بل هي ما يسمح بظهور المدينة نفسها، لأن السكنى لا تتحقق بمجرد البناء، بل حين يصبح الموضوع مفهومًا، وفكرة.

بهذا المعنى لا تكون الجغرافيا وصفاً للأرض بل شرطاً لإمكان العمران. فالمدينة لا تظهر حيث توجد الموارد أو السلطة فقط، بل حيث تتكوّن صورة للعالم تسمح للناس أن يروا أنفسهم داخله ومعه ومنه. ومن ثم فإن بغداد والقاهرة، لا يمكن فهمهما كبنيتين عمرانيتين نشأتا من ظروف سياسية أو اقتصادية فحسب، بل كتجسيدين ماديين لطريقة معينة في ترتيب الكون إدراكياً؛ الحجر يأتي لاحقاً لتصوير يجعل العيش ممكناً.



لا تنتج النصوص الجغرافية المكان عبر تحديد موقعه فحسب، بل عبر إدخاله تدريجيًا في أفق التجربة الممكنة، والتي تمتحن علاقة الإنسان بالعالم. فالجغرافي لا يذكر المدينة باعتبارها نقطة على سطح الأرض، بل باعتبارها موضعًا داخل سلسلة من الحركات: كيف يُقصد إليها، من يمر بها، ما الذي يُحمل إليها ومنها، ومن أقام فيها أو ارتحل عنها، وما بنية الرموز التي تحملها المدينة. بهذا المعنى لا تُقدّم المدينة ككيان مكتمل بل كمرحلة في رحلة وجود. فوجودها لا يُدرك من ثباتها بل من إمكان الوصول إليها، باعتبارها محطة وصول. ولذلك تتقدّم أخبار الطرق على تحديد الحدود، وتسبق أوصاف الأسواق قياس المسافات، لأن الموقع لا يصبح مكانًا إلا حين يمكن تخيُّله ضمن حركة البشر. في كتب المسالك والممالك يتشكل العالم بوصفه نسيج انتقال أكثر منه سطح انتشار. فالمواضع تُذكر عبر علاقتها بما قبلها وما بعدها: مرحلة بعد مرحلة، منزل بعد منزل. المسافة لا تُعطى رقمًا بل زمانيًا؛ "مسيرة يوم"، "مرحلتان"، "بينهما ليلة". وهذا ليس نقصًا في القياس بل تحويل لطبيعة الإدراك نفسه، وفتحه على تأويلاته المركبة. فالمسافة الهندسية تقاس بالعين، تلك الحاسة التي انبنت عليها كل سياسات الامتلاك والترويض والاحتواء، أما المسافة الزمنية فتُعاش بالجسد. القارئ لا يتلقى صورة العالم دفعة واحدة، بل يعبره تدريجيًا، وكأنه يسافر داخل النص. ومن هنا تتكوّن معرفة عملية بالمكان قبل رؤيته؛ إذ يستطيع أن يتوقع موضع الماء، أو موضع السوق، أو نهاية العمران، لأنه تعلّم الإيقاع الذي تنتظم به الأرض.

هذا الأسلوب السردى يخلق نوعًا من الألفة المسبقة. فحين تتكرر خصائص العمران في سياق الرحلة تصيح المدن مألوفة في تشابهاتها وتممايزها في مفترقاتها حتى لغير زائرها. ولذلك لا يُبنى الانتماء بعد الوصول فقط، بل خلال الرحلة؛ إذ يصبح المكان جزءًا من خبرة القارئ المتخيلة، وممارسته اللغوية المركبة. وهكذا يتبين أن الجغرافيا السردية لا تهدف إلى إعطاء صورة نهائية للمكان، بل إلى تدريب القارئ على الدخول فيه. إن النص يخلق خبرة أولى بالعالم تجعل الانتقال داخله ممكنًا، بحيث يصبح المرور الفعلي استمراريًا لمرور سابق داخل اللغة.

وهنا تتحول الكتابة إلى شكل من الإقامة الرمزية: الإنسان يسكن الموضع لأنه صار قابلاً للتوقع والتذكر، لا لأنه رآه. الجغرافيا لا تسجل العالم بل تدرب على العيش فيه. ومن خلال هذا التدريب يتشكل ترتيب خاص للأرض. فالمهم ليس أين تقع المدن على سطح واحد، بل كيف تنتظم في شبكة عبور. الطريق يصبح بنية العالم الأساسية، والعقد التي يصل بينها هي ما يمنحه شكله. لذلك يمكن القول إن النص الجغرافي لا يقدم خريطة جاهزة، بل ينتجها زمنيًا داخل



القراءة. فالقارئ يكون خريطته الخاصة مع تقدّم السرد، ومع كل انتقال تتماسك صورة العالم أكثر. بهذا تتحول الأرض من امتداد مجهول إلى مجال مألوف، ويصبح السكن ممكناً لأن الفهم أصبح ممكناً أولاً.



□□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

الفقرة الثالثة

عندما ظهرت الخرائط في هذا السياق لم تكن انتقالاً من الشفوي إلى البصري أو من الجهل إلى القياس، بل كانت إعادة صياغة لنفس المعرفة في وسيط مختلف. فالرسم لم يسعَ إلى القبض على سطح الأرض بوصفه موضوعاً مستقلاً عن الإنسان، بل إلى تثبيت البنية التي تشكلت داخل خبرة الحركة؛ باعتبار الأخيرة مادة تحدث في الزمن/التاريخ والمكان/الجغرافيا، وبالتالي فهي مادة تاريخية. ولهذا لم تُبنَ الخريطة على مبدأ المطابقة الهندسية، بل على مبدأ النص الإدراكي المجالي. ما ينبغي أن يُرى ليس الامتداد الفيزيائي، بل انتظام العالم بحيث يمكن العبور داخله ومنه وفيه. لذلك تتضخم المدن التي تتكرر في المسارات، وتنكمش الأطراف التي لا تدخل في التجربة، لا لأن الرسام يجهل حجمها، بل لأن حجمها المعرفي مختلف. فالخريطة لا تقيس المكان، بل تقيس حضوره في الحياة. من هنا يصبح الحكم على هذه الخرائط بمنطق الدقة الهندسية حكماً خارج نظامها المعرفي. وهو الأمر الذي تنتبه إليه كارين بينتو في كتابها "الخرائط الإسلامية في العصور الوسطى"، وفيه تقول: "لا يزال علم الخرائط الإسلامي مجالاً غير مدروس بالقدر الكافي (..) وذلك لأن تحليل الرسومات الذي يتم في ضوء دراسة الصور (الأيقونوغرافيا) يعد أمراً مستحدثاً وغير مألوف بعيداً عن نطاق تاريخ الفن الإسلامي، كما أن دراسة الرسومات والأشياء التي لا تتفق مع التعريف الصارم للفن المصغر والهندسة المعمارية يعتبر أمراً نادراً في إطار مجال تاريخ الفن. ونتيجة لذلك؛ فإن الرسومات التوضيحية في المخطوطات للعلوم والجغرافيا تم تجاهلها والتعامل معها بصفحتها مسلمات في شتى التخصصات."

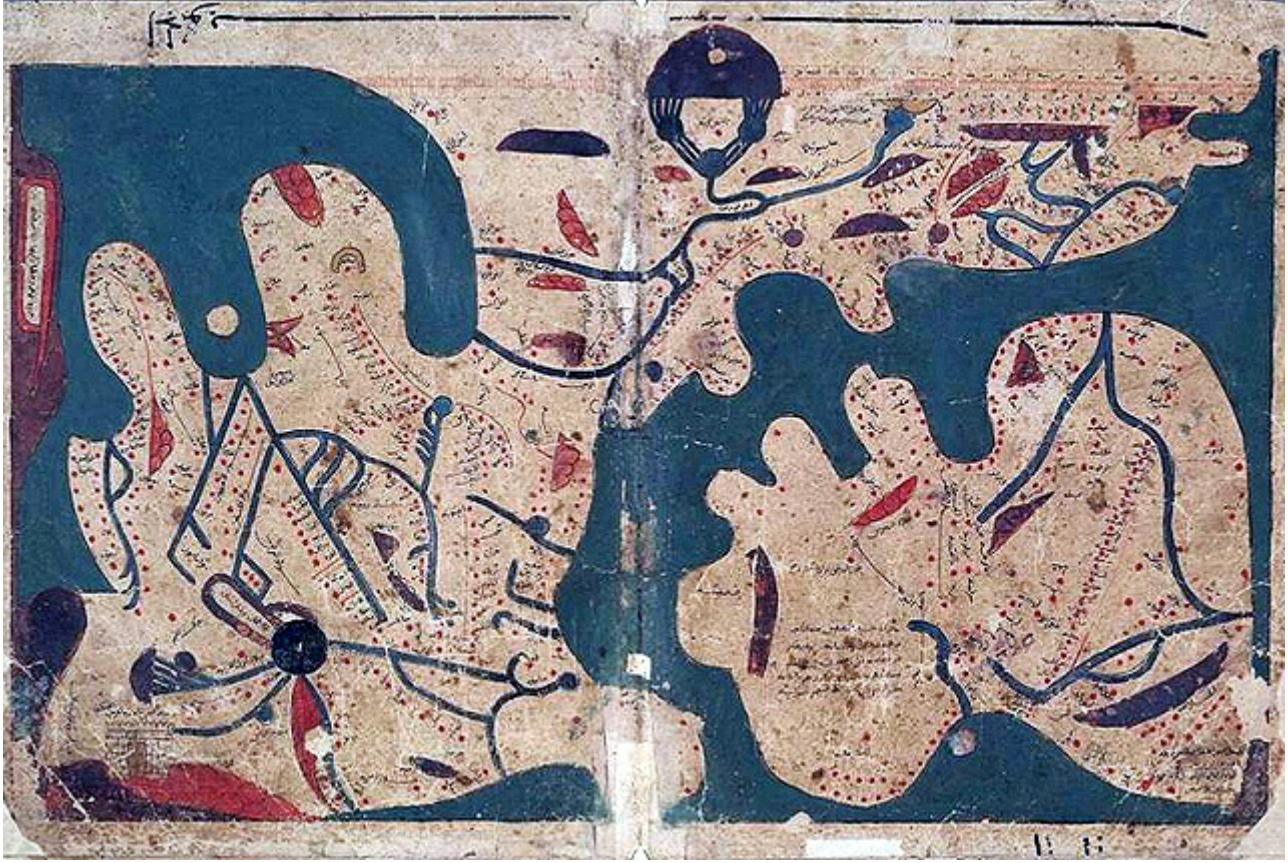
إذ إن ما يبدو "خطأً" هو نتيجة اختلاف في تعريف الحقيقة المكانية نفسها. ففي التصور القياسي الحديث تكون الحقيقة مطابقةً بين الرسم والسطح، أما هنا فهي مطابقة بين الرسم والخبرة. الخريطة لا تُقارن بالأرض بل بالمكان بمعناه الأعم. إنها لا تُسأل: هل تشبه العالم؟ بل: هل تجعل المرور فيه ممكناً؟ ولذلك يُعاد ترتيب الجهات وفق منطق الإدراك لا وفق إحدائيات ثابتة؛ فالقرب ليس مسافة بل إمكانية وصول وتأويل رمزي، والبعد ليس امتداداً بل إعادة



ترتيب. إن الفضاء هنا ليس متجانسًا؛ إنه كثيف حيث يكثر العبور وخفيف حيث ينقطع.

ولا يقتصر هذا المنطق على الرسوم، بل يظهر بوضوح في مدونات الجغرافيين والرحالة بوصفها حقلاً معرفيًا متكاملًا، لا مجرد مؤلفات متفرقة. ففي كتاب المسالك والممالك لا تُقدّم المدن كمواضع مستقلة بل كمحطات داخل تسلسل عبور؛ يبدأ الوصف بالمنازل وتعاقب المراحل قبل الوصول إلى العمران نفسه، بحيث يبدو الموضع نتيجة للمسير لا نقطة ابتدائه. القارئ يتعلم الطريق قبل أن يتعلم المكان، وكأن المعرفة المكانية لا تنشأ من الرؤية بل من القدرة على بلوغها ذهنيًا. ولذلك تتكرر عبارات "منها إلى كذا" أكثر مما تتكرر أوصاف الشكل، لأن الهوية المكانية تُبنى عبر علاقتها بما حولها لا عبر حدودها.

هذا المنطق لا يختص بكتب الطرق فقط، بل يظهر أيضًا في وصف المكان لدى المقدسي، حيث تتقدم أحوال السكان والوظائف الاقتصادية على التضاريس، فيغدو الإقليم مجال حياة لا مساحة أرض. المدينة تُعرّف بما يُفعل فيها: موضع تجارة أو علم أو عبور، لا بمجرد موقعها. وكذلك لدى الأصبخري، حيث تنتظم البلاد في شبكات انتقال متصلة تجعل الحدود أقل وضوحًا من المسارات؛ فالعالم يبدو سلسلة علاقات أكثر منه فسيفساء مناطق منفصلة. أما في مصنف الإدريسي فتتحول هذه العلاقات إلى صورة كلية: فالأقاليم تُبنى عبر اتصال المرافئ والطرق البحرية والبرية، حتى يبدو البحر نفسه طريقًا واسعًا لا حاجزًا. إن ترتيب المواضع هنا يعكس كثافة الحركة لا هندسة السطح.



□□□□□□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□□□ □□□□□□

وتبلغ هذه الرؤية أقصى وضوحها في نصوص الرحلة لدى ابن بطوطة؛ إذ يصل الرحالة إلى مدينة يعرف إيقاعها قبل أن يراها: أين السوق، أين الجامع، أين موضع النزول. المعرفة لا تأتي بعد الوصول بل تسبقه، لأن النصوص السابقة كوَّنت أفق توقع يوجّه التجربة وبراكمها باعتبارها تأويلات متراكبة لنص مكاني متداول في السرد قبل المادي. ولهذا يبدو الدخول تحققًا لما عُرف لا اكتشافًا لما جُهل فقط. الرحلة لا تكشف المكان بل تؤكد قابليته للفهم والتبادل والتأويل. وبذلك تشترك هذه المدونات، رغم اختلاف أنواعها، في وظيفة واحدة: تحويل الأرض من امتداد غريب إلى مجال مألوف عبر إمكان العبور داخله.



من هنا تتضح العلاقة مع الخرائط: فهي لا تضيف معرفة جديدة بقدر ما تضغط معرفة متراكمة. ما تعلمه القارئ عبر التتابع السردى يصبح في الرسم بنية واحدة تُرى دفعة واحدة. الخريطة إذن ليست قطعة مع النص بل ذروته؛ تجريد بصري لخبرة تشكلت أولاً في القراءة والرحلة. إنها تجعل العالم حاضرًا للنظر كما كان حاضرًا للخيال، وتحوّل الانتماء المتدرج إلى صورة ثابتة دون أن تفقده طبيعته الحركية.

يلاحظ المستشرق الفرنسي صاحب الموسوعة في جغرافيا العالم الإسلامي، أندريه ميكيل أن الجغرافيين المسلمين رسموا العالم كفضاء حضارة تنتظم فيه العلاقات لا كمساحة متصلة، بينما يبيّن بول هيك و آدم سيلفرشتاين أن المعرفة الجغرافية كانت بناءً لنظام معنى يحدد موقع الجماعة في الكون أكثر من كونها تسجيلًا للمعلومات. فالحكم على هذه الخرائط بمنطق الدقة الهندسية الحدائثية حكم خارج نظامها المعرفي لأن موضوعها ليس سطح الأرض بل إمكانية العيش فيه. ومن هنا لا تمثل الخريطة منظورًا علويًا محايدًا بل منظورًا إنسانيًا متجسدًا. إنها لا ترى العالم من خارجه بل من داخله، تضغط الزمن في المكان: تعاقب المراحل الذي عاشه المسافر يتحول إلى تزامن بصري سردي. ليست عين سيطرة بل ذاكرة تنظيم ومعنى للتأويل.

بهذا المعنى، تتشكل المعرفة عبر المرور لا النظر، ويبيّن ترافيس زاده أن الجغرافيا الإسلامية تخيل يمنح العالم قابلية للفهم قبل صورته النهائية. وهكذا تتضح العلاقة: السرد ينتج قابلية التخيل، والرحلة تنتج قابلية التحقق، والخريطة تنتج قابلية الإدراك الكلي. فهي لا تضيف معرفة جديدة بقدر ما تضغط معرفة متراكمة؛ تجريد بصري لخبرة تشكلت أولاً في القراءة والعبور، لا تمثيلًا لواقع فيزيائي مستقل.

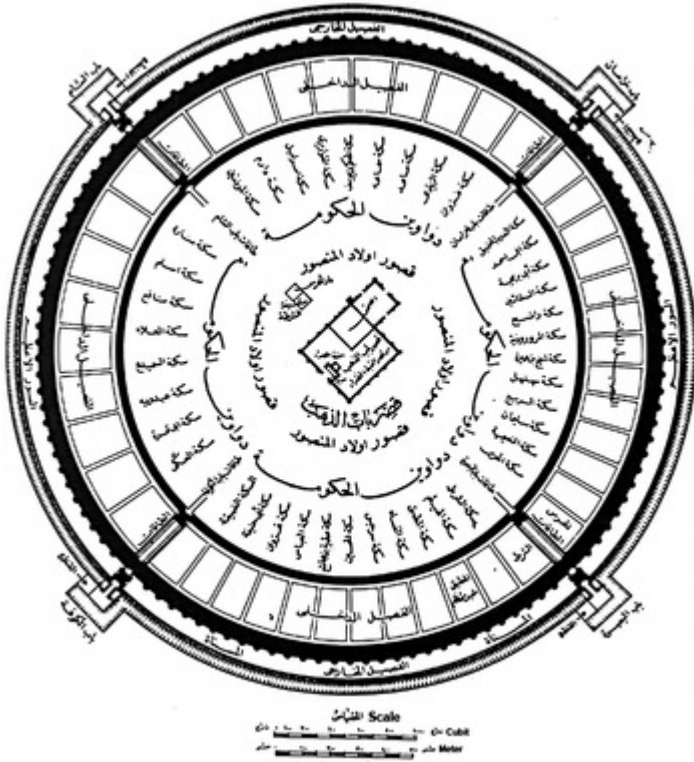


□□□□□□ □□□□ - □□□□ □□ □□□□□□□□ □□□□□□

بغداد

إذا كانت النصوص الجغرافية والخرائط قد نظّمت العالم بوصفه شبكة عبور قابلة للفهم، فإن القبلة تنقله من مجال إدراكي إلى مجال معيش. فالمكان هنا لا يُعرّف بإحداثياته بل باتجاهه؛ أي أن موضع الإنسان يتحدد بعلاقته بمحور يتجاوزه. وبذلك يتحول الفضاء من امتداد محايد إلى مجال توجّه دائم، حيث لا يوجد موقع بلا دلالة اتجاهية. ليست القبلة نقطة داخل العالم بل علاقة تجعل العالم كله قابلاً للتحديد من أي موضع فيه. يكفي أن يعرف الإنسان وجهته ليعرف مكانه، فلا تعود المعرفة المكانية قائمة على الإحاطة البصرية بل على التموضع العملي. العالم لا يُرى من الأعلى بل يُعاش من الداخل، وتصبح الحركة اليومية تذكيراً مستمرّاً بالبنية التي تنظّمه. بهذا المعنى لا تعمل القبلة عنصراً معمارياً يُضاف إلى المدينة، بل جهاز إدراك ينتج نظامها؛ إذ تتشكل الأبنية والشوارع داخل مجال موجّه لا فوق سطح متجانس. ومن هنا يغدو الاتجاه أساساً لبنية عمرانية ممكنة؛ فإذا كانت الخرائط قد جعلت العالم قابلاً للإدراك، فإن القبلة جعلته قابلاً للتجسيد المكاني.

سكن العالم

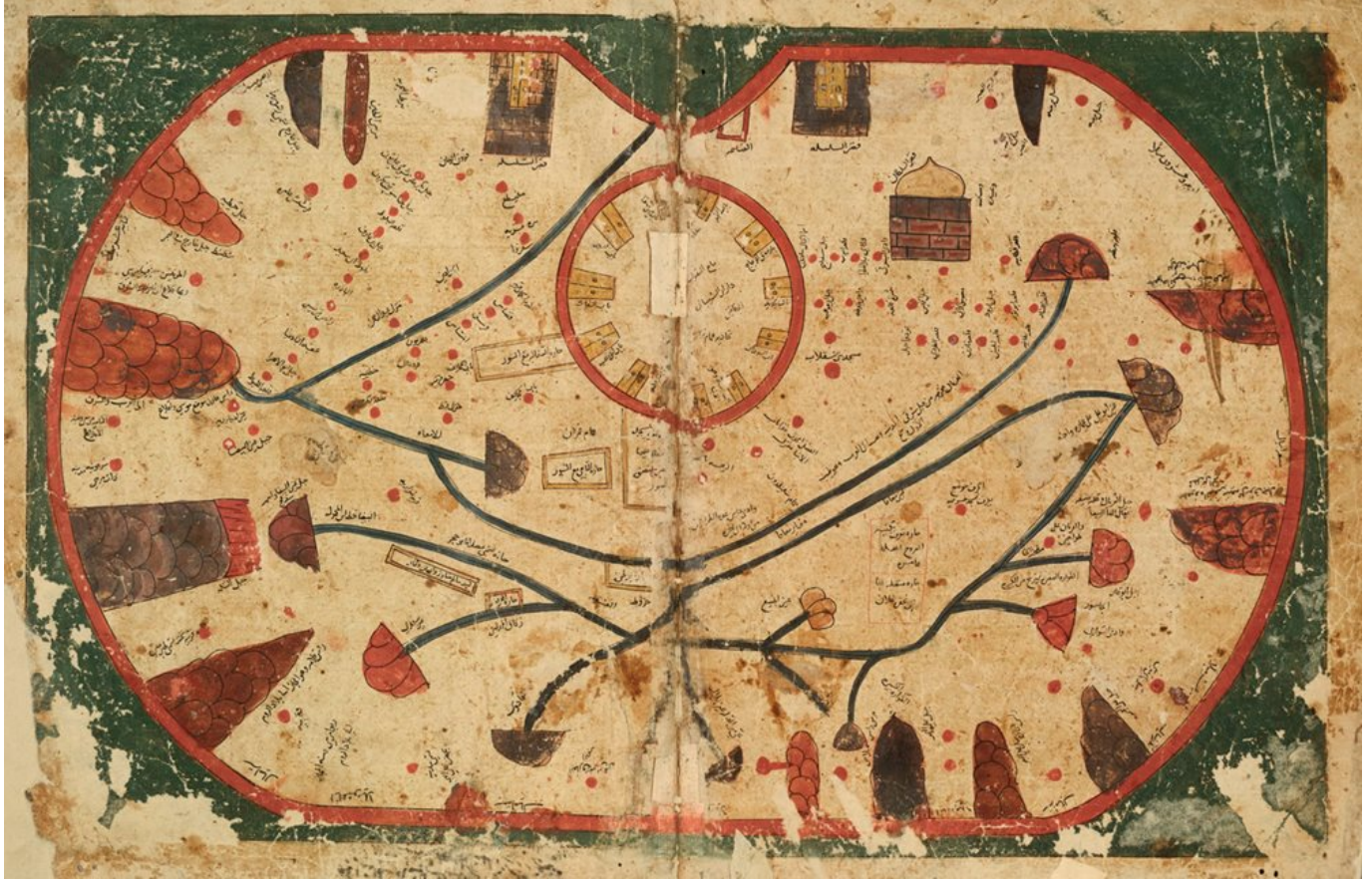


عند هذه النقطة يظهر تأسيس بغداد ترجمة عمرانية مباشرة لهذا التحول. فمصادر تأسيسها لدى الطبري واليعقوبي لا تذكر مجرد بناء عاصمة، بل تصف ترتيبًا مقصودًا للفضاء: دائرة يتوسطها قصر الخليفة والجامع، ومنهما تنطلق طرق شعاعية إلى أبواب تقود نحو جهات العالم. هذا التنظيم لا يحقق الدفاع أو الإدارة فقط، بل يجعل المدينة قابلة للقراءة من داخلها؛ فالمواضع لا تُفهم باستقلالها بل بدرجة قربها من القلب، والحركة فيها انتقال بين مراتب ضمن بنية واحدة. وكما يمنح الاتجاه للإنسان موقعه في الأرض، يمنح المركز للسكان موقعه في المدينة. ولهذا لاحظ الجغرافيون أن بغداد بدت مركز الأقاليم وعقدة المسالك، أي أن مركزيتها لم تكن سياسية فقط بل إدراكية: المدينة تُعرّف بما يتجه إليها بقدر ما تُعرّف بما تحتويه.

وتؤكد الشواهد التاريخية اللاحقة أن هذه المركزية لم تبق رمزية؛ فقد غدت فعليًا ملتقى التجار والعلماء والرحالة من أطراف العالم الإسلامي، حتى تطابق الشكل مع الخبرة. يوضح المؤرخ المعاصر جاستن ماروزي أن بغداد كانت لقرون نقطة التقاء اقتصادي وثقافي وعلمي عالمي، بحيث لم يدخلها الناس كمدينة داخل العالم بل كموضع يُعاد عبره



ترتيب العالم نفسه. هنا لا تعبّر الأدبيات عن مبالغة بل عن تجربة حضرية: المركزية لم تكن فكرة سياسية بل واقعًا يوميًا. ولا يقتصر حضور هذا المعنى على العمران والتاريخ، بل يظهر أيضًا في تمثيل المدينة كارتوغرافيًا. ففي خرائط إقليم العراق لدى الأصطخري وابن حوقل والمقدسي لا تُعرض بغداد كمدينة بين مدن، بل كنقطة تنتظم حولها شبكة الأنهار والطرق؛ فالإقليم لا يحتوي المدينة بل يُقرأ منها. والأهم أن الخرائط تحافظ على دائريتها الرمزية حتى بعد تغير شكلها العمراني، لأن موضوعها ليس هيئة المدينة بل وظيفتها المعرفية. وهكذا يتكرر المبدأ نفسه في مستويين: المدينة تنظّم الفضاء المعاش، والخريطة تنظّم الفضاء المتخيّل. بهذا المعنى لا تكون بغداد عاصمة فقط، بل خريطة مأهولة: ما نظّمته الجغرافيا نظرًا جسده العمران، وما أعطته القبلة اتجاهًا أعطته المدينة شكلًا. إنها ليست مدينة داخل العالم بل صورة للعالم حين يصبح قابلاً للسكن.



مخطوطة العالم وسكنه - بغداد والقاهرة

القاهرة

لا تظهر القاهرة في الجغرافيا الإسلامية بوصفها مدينة احدى المدن المركزية فقط، بل بوصفها تحوُّلاً في طبيعة المكان نفسه. فإذا جسّدت بغداد مبدأ المركز عبر صورة هندسية تنتظم حول قلب واحد، فإن القاهرة الفاطمية تقدّم تصوّرًا مكانيًا مغايرًا يقوم على الاتصال لا الإحاطة؛ فالعالم فيها لا ينتظم حول نقطة ثابتة بل عبر مجال حركة وانتشار وتأويل. فالفاطميون لم يؤسسوا عاصمة فحسب، بل أعادوا تعريف المجال الذي تُفهم فيه العواصم مكانيًا وسياسة ومعنى وعلاقات، ولذلك لا تبدأ قصتها من تخطيطها العمراني وحده بل من موقعها داخل شبكة العالم الإسلامي كما



صاغتھا النصوص والخرائط معًا.

تكشف الخرائط الفاطمية في القرن الحادي عشر أن التمثيل الجغرافي لم يعد وصفًا للأقاليم بل أصبح أداة إعلان سيادي. فالخريطة التي أُعدت للخليفة المعز في القرن العاشر لم تكن بحثًا علميًا بقدر ما كانت بيانًا سياسيًا يربط شخص الخليفة بجغرافيا المقدس ويعلن طموح الخلافة للامتداد عبر الحرمين إلى المجال الأوسع للإسلام. هنا يتحول التمثيل من تنظيم العالم إلى المطالبة به؛ فالمكان لا يُكتشف بل يُعلن الانتماء إليه قبل السيطرة عليه. ومن هذه النقطة يتغير مفهوم المدينة؛ فالخرائط البلخية عرضت العالم شبكة مدن متصلة عبر الطرق، أما الخرائط الفاطمية فتجعل المدينة صورة للسيادة نفسها، إذ تركز الرسوم على الأسوار والبوابات والمجمعات السكنية أكثر من تفاصيل الحياة اليومية. ما يُرسم ليس السوق بل القدرة على حماية السوق، أي قابلية الموضع لأن يكون مركز للسلطة والهيمنة، وضمن هذا الإطار تأسست القاهرة. فعند دخول الفاطميين مصر سنة 969 لم يُعاد تنظيم الفسطاط، بل أنشئت مدينة جديدة مجاورة لها، لا بوصفها توسعًا عمرانيًا بل مجالًا رمزيًا مستقلًا يرتبط بمشروع الخلافة الإسماعيلية وشبكة الدعوة ودار العلم. ولهذا ارتبط عمرانها منذ البداية بإنتاج المعرفة بقدر ارتباطه بالسكن؛ فالمدينة تُبنى حين يصبح العالم نصًا معرفيًا قابلاً للتأويل انطلاقًا منها. وتشير نصوص الفضائل إلى تحول مصر من دار إمارة إلى دار خلافة بل إلى منافسة بغداد على مركزية العالم الإسلامي، ما يعني أن القاهرة لم تُنشأ داخل الخريطة بل بما هي إعادة صياغة لها ولطبقاتها.

نجد تجليات هذا الأمر بادية على المستوى العمراني بوضوح. إذ يصف المقرئون تكوين المدينة بما هو تراكم فضاءات متجاورة: القصور الفاطمية، ثم الجامع الأزهر، ثم الأسواق، ثم الامتدادات التي تشابكت مع الفسطاط ومرافئ النيل. لا يظهر مركز واحد يحتكر الوظيفة هنا، بل تتوزع البؤر بحسب المسارات؛ فالقلب ليس موضعًا ثابتًا بل يتشكل تبعًا للطريق الذي يسلكه المرء. وبذلك تُفهم المدينة من خلال المرور فيها لا من خلال الإحاطة بها، ويغدو الانتقال ذاته والحركة في المدينة مبادئ التنظيم العمراني. يرتبط ذلك بتصور جغرافي أوسع؛ فالقاهرة نشأت داخل شبكة تجارية وبحرية تمتد بين المتوسط والبحر الأحمر (بحر القلزم) والمحيط الهندي، لذلك لا تُقرأ داخل حدودها بل من خلال موقعها بين مجالات متعددة ومتشابهة. النيل يصبح محورًا إدراكيًا لا مجرد عنصر طبيعي؛ المدن تصطف على امتداده، والأسواق تتكون عند نقاط العبور، والاتجاه يقاس بمجرى الحركة لا بالمسافة عن مركز واحد. ولهذا تُعرّف تاريخيًا



ينعكس هذا بوضوح في الخرائط الإسلامية. ففي رسوم مصر لدابن حوقل والأصطخري، ولاحقًا في صورة العالم عند الإدريسي، لا تُعرض القاهرة كدائرة مركزية كما في تمثيل بغداد، بل كنقطة على محور طولي يشكله النيل. تتكثف التفاصيل على مجراه وعلى الموانئ المرتبطة به بينما يبقى شكل المدينة نفسه ثانويًا؛ فالخريطة لا تهتم بتركيبات الموضع (الجغرافي) بل بوظيفته في الحركة. مصر تظهر بما هي ممر، والقاهرة بوابة عبور، أي أن الإقليم لا ينتظم حولها بل يتدفق عبرها.

ويتأكد هذا المنطق أكثر في الخرائط البحرية المرتبطة بالتقليد الفاطمي، حيث يُعرض المتوسط والبحر الأحمر لا باعتبارهما حدود للأرض بل كمساحات مأهولة بالملاحة. تتعدد أسماء المرافئ ومسارات السفن بينما تنكمش اليابسة إلى فواصل بين طرق العبور. في هذا السياق تبدو القاهرة عقدة تربط بين مجالين بحريين كبيرين، ويتحول النيل إلى امتداد للملاحة البحرية. قيمة الموضع هنا ليست في قربه من مركز ثابت بل في قدرته على وصل مسارات بعيدة؛ فالمدينة لا تنهي الطريق بل تمكّنه.

لدى مقارنتها ببغداد يظهر اختلاف نوعي في تصور المكان في القاهرة؛ فبينما تُقرأ بغداد من داخلها إلى خارجها حيث ينتظم العالم حولها؛ فإن القاهرة تُقرأ من خارجها عبر ما يمر بها. في بغداد يتحدد الموقع بدرجة القرب من المركز، وفي القاهرة بدرجة الانخراط في الشبكة. ولذلك لا تعكس الخرائط شكل المدينة بل نمط إدراكها: الدائرة البغدادية تعلم النظام عبر القرب، بينما الخط النيلي والمسارات البحرية تعلم النظام عبر الحركة. بهذا المعنى تصيح القاهرة ترجمة عمرانية لنمط آخر من الجغرافيا الإسلامية نفسها؛ فهي ليست خريطة مأهولة كما هي حال بغداد، بل طريق مأهول. لا يعيش الساكن داخل ترتيب شعاعي يعيده إلى نقطة واحدة، بل داخل مجال انتقال يربطه بأمكنة متعددة. ومن ثم لا تُكتسب معرفة العالم فيها بالإحاطة بل بالعبور المستمر. المدينة هنا ليست صورة للعالم بل وسيلة للمرور فيه: عالم يُفهم لا من مركزه بل من اتصاله.

من الخريطة إلى العصيان المعرفي

تكشف بغداد والقاهرة، حين تُقرأ أن عبر خرائطيهما، أن المكان لم يكن في هذا التقليد مادةً محايدة قابلة للتقسيم والتراكم الإنتاجي، بل علاقةً تبادلية ورمزية اجتماعية قابلة للسكنى. فالخرائط لم تُنتج أرضًا يمكن امتلاكها، بل عالمًا



يمكن العيش فيه. وهذا الفرق هو بالضبط ما فقدته الجغرافيا الحديثة حين تحولت الخريطة إلى أداة سيطرة: من تنظيم العيش إلى تنظيم السيطرة، ومن ترتيب المعنى إلى ترتيب الموارد. فحين ظهر علم الخرائط الاستعماري لم تعد الأرض مجالاً للتأويل المشترك بل سطحاً قابلاً للقياس والتجزئة والتسليع؛ خطُّ حدودي يفصل، وإحداثي يحدد الملكية، وشبكة نقلٍ تعيد تعريف المكان باعتباره مسار استخراج.

في ضوء ذلك لا تبدو الجغرافيا الإسلامية مرحلة ما قبل علمية، بل تمثل منطلقاً آخر للمعرفة المكانية والجغرافية، منطلقاً لا يفصل بين إدراك العالم والسكن فيه. بغداد جسدت مركزاً يُفهم منه العالم، والقاهرة جسدت شبكة يُعاش عبرها العالم؛ وفي الحالتين لم يكن الفضاء موضوعاً خارجياً بل شرطاً لعلاقة البشر بعضهم ببعض. المكان لم يُعرّف باعتباره موضوع اقتصاد، بل بما إمكان اجتماع منفتح على إمكاناته. ولهذا لم تكن الخريطة وعداً بالسيطرة، بل شكلاً للتبادل الرمزي للانتماء.

إن إعادة قراءة هذه النماذج اليوم لا يعني الحنين إلى شكل حضري ماضٍ، بل تحرير مفهوم المكان نفسه من اختزاله الجيواستراتيجي المعاصر، والمقيد برأسمالية الموارد والطاقة. فحين يُعاد تشكيل المنطقة وفق خرائط الممرات والطاقة والمناطق العازلة، يعود الفضاء إلى كونه حساباً للقوة لا مجالاً للحياة. هنا تصح استعادة تقاليد جغرافية أخرى فعل مقاومة معرفية: ليس رفض التقنية، بل رفض اختزال الأرض إلى وظيفة. فالعصيان المعرفي يبدأ حين نكف عن رؤية العالم بوصفه شبكة تحكم ونراه مجدداً شبكة عيش.

بهذا المعنى لا تقدّم بغداد والقاهرة درساً تاريخياً فحسب، بل تفتحان إمكانية نقد للحاضر. فالجغرافيا التي تجعل المدينة خريطة مأهولة أو طريقاً مأهولاً تقترح تصوّراً للمجال لا يقوم على الامتلاك بل على المشاركة، لا على التراكم بل على العبور. وفي لحظة يُعاد فيها رسم خرائط المنطقة وفق منطق السيطرة والاقتصاد والإبادة المستدامة في غزة والقاهرة وبيروت وجدة والعوامية وغيرها، يصبح التفكير في المكان خارج هذا المنطق فعلاً سياسياً بحد ذاته: استعادة للقدرة على تخيل الأرض بما هي علاقة تبادلية جامعة.

إن العودة إلى هذه الخرائط ليست استعادةً للماضي، بل تمريناً على رفض الحتميات المعاصرة. فحين ندرك أن الخريطة يمكن أن تنظّم الحياة بدل أن تنظّم الهيمنة، يصبح ممكناً تخيل جغرافيا أخرى — جغرافيا لا تُحكم من أعلى،

رسم العالم وسكنه: نظرية المكان بين بغداد والقاهرة



بل تُعاش من الداخل. إنها دعوة إلى عصيان معرفي مناhez لكل أشكال الكولونيالية والرأسمالية الحديثة.

الكاتب: عبدالله البياري